

سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكْفُورٌ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

صدق الله العظيم

السورة مكية مبكرة ، والشهور في ترتيبها أنها الثالثة عشرة في النزول . نزلت بعد الشرح وقبل العاديات .

• • •

والمعنى الأصلي للعصر لغةً : الضغطُ لاستخلاص العصارة . استعملته العربية حسيّاً في عصر العنب ونحوه لاعتصار خلاصته . ومنه المِعصرة آلة العصر ، والمِعصرة مكانه . والعواصِرُ ثلاثةٌ أحجار كانوا يعصرون بها .
وسُميت السحبُ الممطرة معصراتٍ لما تعصر من المطر ، وأعصِر القومُ أمطروا . كما أطلق الإعصار على الريح الشديدة تسوق السحب .
واستعمل العَصْرُ مجازياً في الحَسِّ بملحظٍ من الضغط . ومنه الفتاة المُعَصِر التي أدركت وبلغت سنَّ الحَجْز . كما استُعمل مجازياً في استخلاص المال على وجه العطية أو بالضغط . وقيل لكريم النسب : كريم العصر لما فيه من طيب الخلاصة والعنصر .
ومن هذه الدلالة اللغوية الأصيلة على الضغط والاعتصار ، سُمي الدهرُ عَصراً ، بملحظ من استخلاصه عصارة الإنسان بالضغط والتجربة والمعاناة .
كما سُمي وقت الأصيل إلى غروب الشمس عَصراً ، ملحوظاً فيه مع الدلالة الزمنية أنه نصفية للنهار . وفي المصطلح الديني الإسلامي ، سُميت صلاةُ العصر لوقوعها في هذا الوقت من النهار ، كما سُميت سائر الصلوات الخمس بأسماء أوقاتها .

• • •

والذي في القرآن الكريم من المادة :
الْعَصْر ، بمعناه اللغوي الأول في اعتصار الخمر بآية يوسف ٣٦ :
« ودخل معه السجنَ فتيانٍ قال أحدهما إني أراي أعصِرُ خَمراً » .
والمعصرات ، للسحب الممطرة في آية النبا ١٤ :
« وأنزلنا من المُعَصِرَاتِ ماءً ثَجَّاجاً » .
ومعها آية يوسف ٤٩ :

« ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاثُ الناسُ وفيه يَعصرون . »
والإعصارُ في آية البقرة ٢٦٦ .
والعَصْرُ ، في سورة العصر .

• • •

وقد اختلف أهل التأويل في العصر :
قيل هو الدهر ، أو الوقت بعينه من النهار . وعليها اقتصر « الإمام الطبرى » في تفسيره ، ثم اختار الدهر .
وقيل إنه صلاة العصر ، على حذف المضاف ، أو هو عصر النبوة . وقد ساق « الرازى » هذه الأقوال في العصر دون ترجيح بينها ، إلا أن يُفهم ضمناً من إيرادها على الترتيب المذكور آنفاً .
ويبدو أن « الزمخشري » يختار القول بأنها « صلاة العصر لفضلها ، بدليل قوله تعالى : • والصلاة الوسطى • وقول الرسول ﷺ : « من فاتته صلاة العصر فكأنما وترَ أهله وماله » . ولأن التكليف في أداها أشقُّ لتهايت الناس في تجارتهم ومكاسبهم آخرَ النهار ، واشتغالهم بمعايشهم » .
نقله أبو حيان في (البحر المحيط) .
وعبارة الزمخشري أوجز وأقرب ، من قول الشيخ محمد عبده : « وكان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ، ويتحدثوا ويتذكروا في شئونهم ، وقد يكون في حديثهم ما لا يليق أو ما يؤدي به بعضهم بعضاً فيتوهم الناس أن الوقت مذموم ، فاقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان في نفسه ليس مما يُذم ويُسب ، وإنما قد يذم ما يقع فيه من الأفاعيل الممقوتة » .
وهذا ، توسع في أحد الوجوه التي ساقها الفخر الرازى في تفسيره الكبير^(١) ، والنيسابورى في غرائب القرآن .
والراجح عند « ابن قيم الجوزية » أنه الدهر ، قال : « وأكثر المفسرين على أنه

(١) الجزء الثامن ، سورة العصر . وانظر معه تفسير السورة في جزء عم ، للشيخ محمد عبده .

الدهر. وهذا هو الراجح. وتسمية الدهر عصراً أمر معروف^(١). وهو ما نظمنا إليه - كما اطمأن الإمام الطبري - مستأنسين بسياق الآية في السورة، إذ اللفت إلى ما يعتصر الزمن من خلاصة الإنسان، بالضغط والمعاناة، فيكشف عن خيره أو شره.

والسورة تبدأ بواو القسم وهو عندهم على أصل استعماله اللغوي، لتعظيم المقسم به. ولم يتعلق «الطبري» هنا بفكرة العظمة التي سيطرت على جمهرة المفسرين بعده، فراحوا يتأولون وجه العظمة في العصر على اختلاف الأقوال في تفسيره. جمع الرازي ستة وجوه في عظمة العصر بمعنى الدهر، وثلاثة أوجه في عظمتها بمعنى الوقت المعين من النهار، وستة في صلاة العصر، ثم بين وجه عظمتها إن كان مراداً به عصر النبوة.

وقد نقلتُ آنفاً، تأويلَ الشيخ محمد عبده للقسم بوقت العصر. ولا نعلم أن هذا الوقت في المألوف والعادة وقتُ اجتماع الناس وتذاكرهم وتحديثهم. بل لعل وقت المساء أولى بهذا. ثم إن احتمال التحدث بما لا يليق وما يؤذى، لا يمكن في تصورنا أن يختص به وقتُ العصر دون غيره من الأوقات، وإنما هو بما يحتمل وقوعه في أي وقت من ليل أو نهار!

ومن حيث آثرنا مع الطبري وابن القيم، وأكثر المفسرين، أن يكون العصر بمعنى الدهر والزمن، نكتفي هنا بمرض ما قالوه في عظمة العصر بهذا المعنى. ولا تكاد أقوالهم تخرج عما استفاه الفخر الرازي من وجوه عظمة العصر أي الدهر. قال:

«إن الدهر مشتمل على الأعاجيب لأنه يحصل فيه السراء والضراء والصحة والسقم والغنى والفقر، بل فيه ما هو أعجب من كل عجب، وهو أن العقل لا يقوى على أن يحكم عليه بالعدم فإنه مجزأ مقسم بالسنة والشهر واليوم، ومحكوم عليه بالزيادة

(١) التبيان في أقسام القرآن: ص ٨٤ ط حجازي ١٣٥٢ هـ.

والنقصان ، وكونه ماضياً ومستقبلاً فكيف يكون معدوماً ؟ ولا يمكنه - يعنى العقل - أن يحكم عليه بالوجود لأن الحاضر غير قابل للقسمه ، والماضى والمستقبل معدومان ، فكيف يمكن الحكم عليه بالوجود ؟

« إن بقية عمر المرء لا قيمة لها ، فلو ضيعت ألف سنة ، ثم ثبت في اللحمة الأخيرة من العمر بقيت في الجنة أبداً الآباد ، فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في هذه اللحمة . فكان الدهر والزمان من جملة أصول النعم .
« إن الزمان أعلى وأشرف من المكان ، فكان القسمُ بالعصرِ قسماً بأشرف النصفين من مُلك الله وملكوته .

« إنهم كانوا يضيفون الخسران إلى نوائب الدهر ، فكأنه تعالى أقسم على أن الدهر والعصر نعمةٌ حاصلة لا عيب فيها ، إنما الخاسر المغيب هو الإنسان .
« إنه تعالى ذكر العصر الذى بمضيه يتقص عمرك ، فإذا لم يكن في مقابلته كسب صار ذلك التقصان عين الخسران . فكأن المعنى : والعصر العجيب أمره حيث يفرح الإنسان بمضيه لظنه أنه وجد الريح ، مع أنه هدم لعمره وإنه لفي خسر^(١) .
والثفت « ابن القيم » إلى مكان العبرة فيه ، قال : « فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم ، منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام ، وتعاقبها مع اعتدالها تارة وأخذ أحدهما من صاحبه تارة ، واختلافها في الضوء والظلام والحر والبرد ، وانتشار الحيوان وسكونه ، وانقسام العصر إلى القرون والسنين والأشهر والأيام والساعات وما دونها ، آية من آيات الربّ تعالى وبرهان من براهين قدرته وحكمته .
فأقسم بالعصر الذى هو زمانُ أفعال الإنسان ومحلها ، على عاقبة تلك الأفعال وجزائها ، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم ، على المعاد ، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد^(٢) .

وأضاف « النيسابورى » من إشارياته : « أن آخر النهار يشبه تخريب العالم وإماتة الأحياء كما أن أول النهار يشبه بعث الأموات وعمارة العالم . وفيه إشارة إلى أن عمر

(١) الفخر الرازى : الضمير الكبير ٨ / سورة العصر .

(٢) ابن قيم الجوزية : التبيان فى أقسام القرآن / ٨٤ .

الدنيا ما بقي إلا بقدر ما بين العصر إلى المغرب ، فعلى الإنسان أن يشتغل بتجارة
لا خسران فيها فإن الوقت قد ضاق وقد لا تدرك ما فات .

كما ذكر « من أعاجيب الدهر الدالة على كمال قدرة خالقها : أن الدهر موجود
يشبه المعلوم ومتحرك يضاهى الساكن . . . وأن عمر الإنسان كبعض منه :

• إذا ما مرَّ يوماً مرَّ بعضي •

و « لا شيء أنفس من العمر . وفي تخصيص القسم به إشارة إلى أن الإنسان يضيف
المكارة والنواب إلىه ، ويجعل شقاءه وخسرانه عليه ، فإقسام الله تعالى به دليل على
شرفه ، وأن الشقاء والخسران إنما لزم لعبه فيه - أي الإنسان - لا في الدهر ، ولذلك
قال عليه السلام : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر ^(١) .

• • •

وترى أنهم حملوا لفظ العصر كل هذه التأويلات الفلسفية والإشارية مما لا تتصور
أن القرآن الكريم لفت إليه بلفظ « والعصر » . وفي البيان القرآني من آيات الليل والنهار
ما يحلو الحكمة فيها بما يفهمه الناس بأيسر ملاحظة وتأمل ، ونكتفي هنا بآتي
القصص :

« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير
الله يأتاكم بضياء أفلا تسمعون • قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار
سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه
أفلا تبصرون » ٧١ ، ٧٢ .

وندع استقراء آيات الليل والنهار ، إلى ما يأتي من تفسيرنا لسورة « الليل » .
وأسلوب القرآن في بيان الآيات وضرب الأمثال للناس ، يجعلنا لا نطمئن إلى أن
آية العصر ذكرت هذا اللفظ ، وأرادت به كل هذه التأويلات الفلسفية
والإشارية . . .

وأولى من هذا كله أن نقف عند لفظ « العصر » لنرى وجه العدول فيه عن لفظ
« الدهر » الذي قال المفسرون في حكته وعظمته ما قالوا .

(١) النيسابوري : تفسير غرائب القرآن ، على هامش الطبري : ج ٣٠ .

والفاصلة بكلا اللفظين ، العصر والدهر ، مرعيةً ، عند من يتخلقون بهذه الصنعة
 البديعية ويقفون عند الملحظ الشكلي .
 وقد قال الرازى في وجه إثبات العصر بالذكر : « ولعله تعالى لم يذكر الدهر لعلمه
 أن الملحد مولعٌ بذكره وتعظيمه » .
 على حين يذهب النيسابورى إلى أن وجه الإقسام بالعصر هنا « لشرف الدهر »
 ويروى الحديث : « لا تسبوا الدهرَ فإن الله هو الدهر » .

• • •

ونخلص من هذا كله لتدبير آية العصر بعيداً عن فلسفة المتكلمين وتأويلات
 الإشاريين ، فنرى في استقراء مواضع استعمال القرآن لمادة « عصر » ما يهدى إلى
 ملحظ إطلاق العربية العصرَ على الدهر ، بما يعتمر من خلاصة الإنسان بالضغط
 والابتلاء .

وبهذا الملحظ المؤلف لدى العرب في عصر المبعث ، والعربية لغتهم ، تأتي كلمة
 العصر في سياقها من السورة ، لافتةً إلى ابتلاء الإنسان بالعصر الذى يصهره بالمعاناة
 ويعصره بالتجربة والابتلاء .

والواو هنا في موضعها الذى تطرد به الظاهرة الأسلوبية في اللفت إلى حسيّ
 مدرك ، توطئةً إيضاحيةً لبيان معنى غير محسوس ولا مدرك ، وهو ما شرحناه بمزيد
 تفصيل في تفسير سور (الضحى ، والعاديات ، والنازعات) في الجزء الأول من هذا
 التفسير ، ونعرض له مرة أخرى فيما يلي من تفسير سورتي (الليل ، والفجر) .

وبهذا اللفت الموجّه إلى ضغطة العصر ابتلاءً ، تأتي الآية بعده :

« إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ » .

وللمفسرين في الإنسان قولان : إنه لعموم الجنس ، أو : إن (ال) للعهد مراداً
 بالإنسان جماعةً من المشركين : الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن
 عبد المطلب ، في رواية عن ابن عباس . وقيل نزلت في أبي لهب ، وفي خبر مرفوع أنها
 نزلت في أبي جهل . . .

« وذلك لأنهم كانوا يقولون : إن محمداً لقي خُسراً ، فأقسم تعالى بالضدِّ

كما يتوهمون ،^(١) .

ولا نقف عندما اختلفوا فيه ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذى نزلت فيه الآية . والسياق على ظاهره لا يخص الإنسان بفلان أو بآخر . والتعميم فيه مستفاد صراحة من الإطلاق ثم استثناء . الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وهذا الاستثناء ينقطع إذا ما كان الإنسان خاصاً بالمعهودين الذين ذكروهم ، وليس فيهم من يخرج بالاستثناء مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

« وإنما استثنى الذين آمنوا من الإنسان ، لأن الإنسان بمعنى الجمع لا بمعنى الواحد » كما قال الإمام الطبرى « وللجنس بعامة » كما قال الزمخشرى ، أو « اسم جنس يعم » كما ذهب أبوحيان ، ويوشك أن يكون هذا هو ما اطمأن إليه ابن القيم فى (التبيان) .

وبقى أن تدبر موضع الإنسان هنا ، لنلمح سر الدلالة لهذا اللفظ ، لا يقوم مقامه هنا لفظ آخر كالناس أو الإنس ، على القول بترادفها . فاستقراء هذه الألفاظ فى كل مواضع استعمالها القرآنى . يشهد بأن لكل منها ملحظاً خاصاً فى الدلالة ، إلى جانب الملحظ الدلالى المشترك فيها جميعاً بحكم تقارب مادتها اللغوية فى الأصل :

فالناس لعامة الجنس :

« يأيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلٍ

لِتعارفوا إِنْ أكرمكم عند الله اتقاكم » (الحجرات ١٣)

« فأما الزبدُ فَيَذَبُ جُفَاءً وأما ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمَكْتُ فى الأَرْضِ ،

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ » . (الرعد ١٧)

« وتلك الأمثالُ نضربُها للناسِ لعلهم يتفكرون » (الحشر ٢١)

ويأتى لفظ الإنس فى القرآن فى ثمانية عشر موضعاً ، كلها مع الجن ، فشهد ذلك بأن دلالة الإنسية ، بما تعنى من نقيض الوحشية ، هى التعينة فى الإنس .

(١) تفسير الرازى : ج ٨ ، والسيابورى على هامش الطبرى ج ٣٠ .

أما « الإنسان » فإلى جانب كونه من الناس ، ومن الإنس نقيض الجان (الحجر ٢٦ والرحمن ١٤) يتميز بدلالة خاصة على الإنسانية . وتتضح هذه الدلالة باستقراء آيات الإنسان في القرآن وعددها خمس وستون آية ، في سياق الأهلية لاحتمال تبعات التكليف ، والابتلاء بالخير والشر ، والتعرض للغواية ، وما يلابس ذلك من غرور وطغيان .

والإنسان في القرآن الكريم ، لا الإنس ، هو الذي اختص بالعلم ، وبالبيان والجدل ، كما أنه يتلقى الوصية ويحمل الأمانة .
فشهد ذلك بأن الإنسان ليس مجرد فرد من الإنس أو الناس ، وإنما مناط الإنسانية فيه معنوية ترقى به من مجرد الإنسية البشرية ، إلى حيث يحتمل تبعات التكليف والإدراك والرشد ، وأمانة الإنسان .

وللراغب الأصفهاني ملحظ دقيق في اشتقاق لفظ الإنسان ، يربطه باجتماعه التي تجعله يأنس إلى الجماعة^(١) . وهو ملحظ يقبله حس العربية في الإنس والإنسان معاً ، ثم تخصص الإنسانية بدلالاتها على نقيض التوحش ، وتأخذ الإنسانية دلالتها على خصائص الإنسان وأهليته لاحتمال تكاليف الإنسانية ، على ما هدى إليه استقراء آيات الإنس والإنسان في البيان القرآني^(٢) .

وبهذه الدلالة الخاصة ، يأتي لفظ « الإنسان » في سورة العصر ، في سياق ما يحتمل من تبعات التكليف ومستولية الإنسان الفردية والاجتماعية .
والخُسْر لفة نقيض الربح ، استعمل مادياً في التجارة الخاسرة أو الصفقة المفقودة ، ومنه جاء بمعنى النقص والجور والضعف والخيانة والغدر ، ثم نُقِلَ إلى المجال الديني بمعنى الضلال عن الحق وهو أفدح الخسر .

ووردت المادة في القرآن الكريم في أربعة وستين موضعاً ، منها ثلاثة في الخسر بمعناه المادى في التعامل التجارى مع الوزن والكيل :

(١) الراغب : مفردات القرآن - مادة أنس .

(٢) بتفصيل في (مقال في الإنسان : دراسة قرآنية) ط المطرف ١٩٦٩ . وفي البحث الأول من كتابي القرآن وقضايا الإنسان) ط دار العلم للملايين : بيروت ١٩٧٢ .

« الذين إذا اكلوا على الناس يَسْتَوْفُونَ • وإذا كَالُوهم أو وَزَنُوهم
يُخْسِرُونَ »
(المطففين ٣)

« وأقيموا الوزنَ بِالْقِسْطِ ولا تُخْسِرُوا المِيزَانَ » (الرحمن ٩)

« أَوْفُوا الكَيْلَ ولا تَكُونُوا مِنَ المُخْسِرِينَ • وَزِنُوا بِالْقِسْطِ المِستَقِيمِ •
ولا تَبْخَسُوا الناسَ أَشْيَاءَهُم ولا تَعْتُوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ • »
(الشعراء ١٨١)

وجاءت المادة في الخُسْر المعنوي ، في إخوة يوسف :

« قالوا لئن أَكله الذئب ونحن عصبةٌ إنا إِذاً لَخاسرونِ » (يوسف ١٤)
وفي ولدي آدم :

« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَفَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخاسرينِ »

(المائدة ٣٠)

والغالب أن يأتي الخسر بالمعنى الديني ، في سياق النذير بسوء العقبي وعذاب
الآخرة : للكافرين ، والضالين ، والمنافقين ، والمكذبين بآيات الله وبلقائه
والمشركين ، والظالمين ، والمبطلين ، والذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ،
ويفسدون في الأرض ، ومن يتخذ الشيطانَ وليًا ، ومن يتبغى غيرَ الإسلام دينًا ،
والذين قتلوا أولادهم سَفَهًا بغير علم . . .

ويؤذن السياق فيها بأن الخسر يتعلق بالنفس والمال والأهل والعمل ، فهو خسر
الدنيا والآخرة ، وأكثر ما يكون الخسر يومَ القيامة حيث يدرك الضالون أنهم خسروا
الدنيا والآخرة .

« فإذا جاء أمرُ الله قُضِيَ بالحقِّ وخَسِرَ هُنالكِ المِبتلونِ » (غافر ٧٨)

« وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يومَ

القيامة »
(الشورى ٤٥)

« قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يومَ القيامة »

(الزمر ١٥)

« ومن يكفر بالإيمان فقد حَبِطَ عمله وهو في الآخرة مِنَ الخاسرينِ »

(المائدة ٥)

« أولئك حزبُ الشيطانِ ألا إنَّ حزبَ الشيطانِ هم الخاسرون »

(المجادلة ١٩)

وانظر معها آيات : (المؤمنون ١٠٣ ، والتوبة ٦٩)

وجاء « الأخسرون » أربع مرات للذين يصدون عن سبيل الله ويبخونها عوجاً

وبالآخرة هم كافرون :

« لا جرمَ أنهم في الآخرة هم الأخسرون »

(هود ٢٢)

ومعها : (القل ٥ ، الكهف ١٠٣ ، الأنبياء ٧٠ ، هود ٤٧)

أما المصدر منه فجاء بصيغة خُسران ثلاث مرات ، موصوفاً فيها بالمبين :

« وَمَنْ يَتَخَدَّ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مَبِينًا »

(النساء ١١٩)

« ومن الناس من يعبدُ اللهَ على حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ

أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ

(الحج ١١)

المبين »

ومعها آية الزمر ١٥ .

وبصيغة الخسار ، ثلاث مرات كذلك ، في قوم نوح : « وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ

وولده إلا خَسَارًا ، وَالظَّالِمِينَ : « وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » الإسراء ٨٢ . والكافرين

« وَلَا يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا » فاطر ٣٩ .

ومرة واحدة بصيغة تخسير في آية هود :

« فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ، فَا تَرِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ » ٦٣ .

وأما صيغة خُسِرَ فجاءت مرتين : آية العصر ، وآية الطلاق :

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا

وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا فَذَافَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا » ٩ .

والخسر فيها هلاكٌ ماحق ، عن ضلالٍ وعتو ، والعبرة فيها لأولى الألباب .

وهذا الاستقراء يتيح لنا أن نقول إن الخسرياتي في القرآن بالمعنى الدني في الضياع

وسوء العقبي ، مع ملحظ من معناه الأصلي في الصفقة الخاسرة لمن يشترون دنياهم بأخراهم فيخسرون الآخرة والأولى .

ما لم يعين السياق غير ذلك ، كما في آيات المطففين والرحمن والشعراء ، مع الوزن والكيل ونحس الناس أشياءهم .

وهذا الاحتياط هو ما فات « الراغب » حين قال في (المفردات) : « وكل خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير ، المتعلق بالإيمان ، دون الخسران المتعلق بالقنيات الدنيوية والتجارات » .

• • •

ونفهم الخسر في آية العصر ، بما يؤنس إليه سياق النكوص عن تبعات التكليف والتفريط في مسئولية الإنسان .

فلا نستريح إلى تأويل الزمخشري بأن المعنى « أن الناس في خسران من تجارتهم ، إلا الصالحين وحدهم لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وسعدوا ، ومن عداهم تحمروا بخلاف تجارتهم فوقعوا في الخسارة ، والشقاوة »^(١) .

كما لا تتعلق بما ساقه « الفخر الرازي » من احتمال « أن الإنسان لا ينفك عن خسر ، لأن الخسر تضييع رأس المال ، ورأسُ ماله عمره : إن أنفق في المعضية فلا شك في الخسران ، وإن أنفق في المباحات فالخسران أيضاً حاصلٌ لأنه كان متمكناً أن يعمل فيه عملاً يبقى أثره دائماً ، وإن أنفق في الطاعات فلا طاعة إلا يمكن الإتيان بها على وجه أحسن لأن مراتب الخشوع غير متناهية ، كما أن مراتب جلال الله وقهره غير متناهية »^(٢) .

وصريح النص في الآية بعد الخسر ، يؤذن بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وبالصبر ، ليسوا في خسر أبداً .

وحرف « في » يأخذ موضعه في هذا البيان المعجز ، بما يفيد من معنى الظرفية ، في العمر والإحاطة والإغراق .

(١) الكشاف : ٤ / العصر .

(٢) التفسير الكبير : ج ٨ ، العصر .

وليس تنكير «خسر» من المبالغات كما ذهب النيسابوري ،
 وإنما التنكير ، فيما يُفهم من السياق ، على أصله البياني من الإطلاق غير المحدود
 بقيد أو عهد . وقد يحتمل كذلك معنى التهويل ، على ما قال الرازي . ووجهه عنده ،
 أنه «خسر عظيم لا يدرك كُنْهَهُ إِلَّا اللَّهُ» .

• • •

«إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» .
 الإيمان نقيض الكفر ، وفي دلالته اللغوية الأصبلة جسُّ الأمن والأمانة .
 والصلاح ضد الفساد ، وتستعمل الصالحات في المجال الديني ، نقيضاً للسيئات .
 وواضح هنا أن على الإنسان مسئوليته فرداً بالإيمان وعمل الصالحات ، ومسئوليته
 عن الجماعة بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

ويقرن العمل الصالح بالإيمان في القرآن الكريم نحو خمس وسبعين مرة ، مع
 الوعد والبشرى بأن مَنْ يعمل صالحاً وهو مؤمن ، فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ،
 لا كفران لسعيه ، له جزاء الحسنى ، وحياة طيبة .

والذين يؤمنون بالله ويعملون الصالحات ، وقليل ما هم ، لا خوف عليهم ولا هم
 يحزنون ، لهم الدرجات العُلى ، ولهم أجرهم عند ربهم ، أجر كريم ، عظيم كبير ،
 غير ممنون . ولهم مغفرة ورزق كريم ، وليستخلفتهم الله في الأرض ، ويزيدهم من
 فضله ، وسيجعل لهم الرحمن وُداً ، وهم خير البرية ، وأصحاب الجنة ، طوبى لهم
 وحسن مآب .

ويأتي العمل الصالح مستنداً إلى رسل الله ، كما يأتي الصالحون مع النبيين والشهداء
 في آيات (النساء ٦٩ ، الأنبياء ٧٢ ، ٨٦) وفي دعاء يوسف (١٠١) وإبراهيم (الشراء ٨٣)
 وسليمان (الزل ١٩) .

وَعُطِفَ النَّهْيُ عَنِ الشَّرْكِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي آيَةِ الْكَهْفِ ١١٠ :
 «فَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ
 أَحَدًا» .

كما جاء مقابلاً للكفر في آية الروم ٤٤ :

« مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ »

وفي هذا الاستقراء إيذانٌ صريحٌ بأن عمل الصالحات قرينُ الإيمان ، ومنه نقول في آية العصر إن الإيمان بالله ينبغى أن يقترن بعمل الصالحات ، لكي ينجو الإنسان من الخسر .

لكن من المفسرين من لم يأخذوها بمثل هذه البساطة واليسر ، بل أثاروا فيها عدداً من المسائل ، منها جدلٌ للمتكلمين لا يعنينا هنا في تفسيرنا البياني ، كالذي ثار بين المعتزلة والأشعرية من خلاف حول تسمية الأعمال بالصالحات : هل لكونها في نفسها مشتملة على وجوه الصلاح ؟ أو لأن الله سبحانه أمر بها ؟

ومنها ما يتصل بموضوعنا في أسرار التعبير ، كالوقوف عند عطف عمل الصالحات على الإيمان ، احتج به من قال بأن العمل غيرُ داخل في مُسمى الإيمان بالله : « إذ لو كان داخلاً فيه لكان تكريراً ولا يمكن أن يقال إن هذا التكرير واقع في القرآن ، ولا يمتنع له بمثل قوله تعالى : • وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح . . . • وقوله سبحانه : • وملائكته ورسله وجبريل وميكال • لأن هذا حسنٌ فيه إعادة ما هو أشرفُ أنواعِ الكَلَمَى ، وعملُ الصالحات ليس أشرفَ أنواعِ الإيمان ، فبطل هذا التأويل » (١) .

ورُدَّ عليهم بما في سورة العصر نفسها من عطف التواصي بالحقِّ وبالصبرِ على عمل الصالحات ، فكان جوابهم : « لا نمنع ورود التكرير لأجل التأكيد . لكن الأصل علمه » (٢) .

وتندبر القرآن الكريم فيهدينا استقراء آياته المحكمات - على ما قدمنا - إلى أنه كثيراً ما يعطف العمل الصالح على الإيمان ، فلا يكون هذا تكريراً للتأكيد ، بقدر ما هو هو إيذانٌ بأن الإيمان يقترن بالعمل الصالح .

فعمل الصالحات في آية العصر ، إذا عدَّه بعضهم داخلاً في الإيمان - وآية الروم تونس إليه - فليس العطف تكريراً مجرد التأكيد ، وهو مألوف في العربية ، وإنما يكون

فيه تنبيه إلى قيمة عمل الصالحات وموضعها من الإيمان ، فكأنه من التخصيص بعد التعميم .

وليس لقاتل أن يقول في البيان المعجز : « لا نمنع التكرير للتأكيد ولكن الأصل عدمه » . . . إذ أن هذا القرآن هو الأصل والحجة !

وبالإيمان وعمل الصالحات تتعين مسئولية الإنسان فرداً ، مع مسئوليته عن الجماعة :

« وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

الحق هنا نقيض الباطل .

والمرية قد استعملته حسياً في الطعنة لا زيغ فيها . والمحقق من الثياب المحكم النسيج ، والحق من الإبل الذي اشد واستحق أن يُركب .
وبملحظ من صدق النفاذ ، أُطلق على العدل والخزم والصدق والأمر المقضى والموت .

والحق ، واحد الحقوق . وتحقق الخبر صح وصدق . ومن ثم شاع استعماله في نقيض الباطل . ونقل بهذا الملحظ إلى المجال الديني اسماً من أسماء الله الحسنى ، وكثر استعماله بمعنى الوحي ورسالات الدين .

وفي القرآن الكريم وردت المادة بصيغة الفعل الثلاثي تسع عشرة مرة ، فيما حق من قول الله وعذابه ووعيده على الكافرين ، ومرتين على البناء للمجهول في آيتي الانشقاق :

« وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُمَّتْ » .

وجاء المضارع من الرباعي أربع مرات ، كلها مسندة إلى الله تعالى :

« يُحِقُّ الْحَقُّ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »

(الأنفال ٨ ، ومعها : الأنفال ٧ ، ويونس ٢٤ ، والشورى ٢٤)

فجاء فعل الاستحقاق مرتين في آية الدين (المائدة ١٠٧) ولا يخلو سياقها من ملحظ الحرمة الدينية في أداء الشهادة .

أما صيغة الحق فجاءت نحو مائتين وسبع وعشرين مرة ، كلها في المعنى الديني ، إما مقابلة للباطل ، أو اسماً من أسماء الله الحسنى ، أو للوحي والدين . ويوصف بالحق وعدُّ الله ، وقوله ، وكلماته .

ولا يخرج عن هذا السياق الديني ، ما فرض الله على ذوى المال من حق معلوم لمن يستحقونه ، وما شرع من حقوق في الميراث والزواج والطلاق ، بما لهذه الحقوق من حُرمة دينية تجعلها من حدود الله .

وسمى يوم القيامة : « الحاقَّة » .

وذلك كله مما يضمنى على كلمة « الحق » مهابة وجلالاً ، ويؤكد حرمتها في التواصى بالحق .

والتواصى : أن يوصى بعضهم بعضاً .

والأصل اللغوي للبادء يعطى معنى قوة الارتباط والاتصال : فالوَصَاة والوصية \ جريدة النخل يُحزَم بها . ووصت الأرض اتصلَ نباتُها . ومنه جاءت الوصية فيما يعهد به الموصى ليصلَ إلى من ينبغي أن يتلقاه : أوصاه ووصَّاه ، عهد إليه . وتواصى القومُ بأمرٍ أوصى به أولهم آخرهم . والوصيةُ ما يتركه الآباء للأبناء وذوى القربى . . . وفي القرآن الكريم جاء الفعل وصَّى وأوصى ، اثنتى عشرة مرة ، فيما أوصى به سبحانه رسلَه وعباده . وغلب مجيء الوصية بمعناها المعروف فيما يوصى به الراحلون عن الدنيا ، مع حُرمة دينية يسبغها القرآن على الوصية بالحق في حدود ما أمر به الله . أما التواصى فجاء في القرآن خمس مرات ، كلها بصيغة الفعل الماضي . وإحداها في سياق الاستفهام الإنكارى لموقف أم خلت من رسل الله إليهم ، وكأنهم تواصوا بالكذب :

« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلا قالوا ساحرٌ أو مجنون »

« تواصوا به بل هم قوم طاغون » (الناريات ٥٣)

والأربع الباقيات في مسئولية الإنسان عن الجماعة ، بآية العصر :

« وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وآية البلد :

« فلا اقتحم العقبة • وما أدراك ما العقبة • فك رقبة • أو إطعام في يوم ذي مسغبة • بيتا ذامقربة • أو مسكينا ذامقربة • ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصلوا بالرحمة » .
والسورتان مكيتان ، ففيها تقرير لما هو من أصول الدعوة الإسلامية .

• • •

والصبر في العربية نقيض الجزع .
ومن استعماله اللغوي في الحسيات : عُصارة شجر مرّ ، واللبن إذا اشتدت حموضته إلى المرارة ، والحجارة الغليظة المجتمعة .
وبملحظ من الشدة والمرارة ، قيل للحرب الشديدة وللدهاية : أم صبور .
والصبارة شدة البرد .

والصبرُ الحسبُ ، والقتلُ صبراً أن يُحبسَ المرءُ ويرمى حتى يموت .
ثم كثر استعماله في الصبر على الشدائد والمكاره . والصبور الحليم الذي لا يعاجل العُصاة بالنقمة ، بل يضبط أمره فيعفو أو يمهل .
ولم يذكر القرآن الكريم في آيتي العصر والبلد متعلق الصبر الذي يتواصى به المؤمنون ، وقد فسره الإمام الطبري بالصبر على العمل بطاعة الله . وقال الزمخشري في الكشاف : هو الصبر عن المعاصي وعلى الطاعات وعلى ما ييلو به الله عباده . وقرب منه ما جاء في البحر المحيط لأبي حيان . وفصله الفخر الرازي فقال فيما قال :
« إن التواصي بالصبر يدخل فيه حملُ النفس على مشقة التكليف في القيام بما يجب وفي اجتناب ما يجرم . إذ الإقدام على المكروه والإحجام عن المراد كلاهما شاق شديد . . . ودلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن الحنّ تلازمه ، فلذلك قرُن به التواصي بالصبر » .

وكلها أقوال متقاربة مقبولة ، ولا يكاد يخرج عنها ما في تفسير الشيخ محمد عبده لسورة العصر .

• • •

ونستقرئ آيات الصبر في القرآن ، فنجد الأمر الإلهي للمصطفى بالصبر ، في نحو

عشرين موضعاً. ويتعلق الصبرُ فيها بما يحتمل ﷺ ، من أعباء تبليغ رسالته ، وما يلقى من تكذيبٍ وأذى بالقول أو بالفعل .

وأمر الله المؤمنين بأن يستعينوا بالله ، وبالصبر والصلاة ، في آيات :

(البقرة ٤٥ ، ١٥٣ ، والأعراف ١٢٨) كما أمرهم بالصبر في الجهاد والثبات عند لقاء العدو :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

(آل عمران ٢٠٠)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ » وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ

(الأنفال ٤٦)

وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ »

ووصف أنبياء بالصبر في آيتي (الأنبياء ٨٥ ، ص ٤٤) ، وجاء الصبر مسنداً إلى أولى

العزم من الرسل (الأحقاف ٣٥) ورسلي من قبلك (الأنعام ٣٤) وأتمته يهدون بأمر الله (السجدة

٢٤) والمؤمنين والفائزين بنعيم الآخرة :

« سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » (الزمر ٢٤)

« وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »

(نمل ٣٥)

وآيات الصبر في القرآن الكريم لا تتجه إلى غير هذه الصفة من الرسل والمؤمنين ،

إلا أن تجيء نذيراً للخاسرين كالذي في آيات :

« وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ

أَنْتُمْ مُّقْتَدُونَ عَنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » ، قالوا لو هدانا الله لهديناكم

سواءً علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيصٍ » (إبراهيم ٢١)

« هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ »

اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »

(الطور ١٦)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهَدَى وَالْعَذَابَ بِالْغَفْرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى

(البقرة ١٧٥)

النارِ !

وقريب منها صبر المشركين على آلهتهم ، وعلى ضلالهم وكفرهم ، في مثل آيات :
(فصلت ٢٤ ، الفرقان ٤٢ ، ص ٦) .

ومما يتعلق به صبر المؤمنين :

الابتلاء : « وَلِتَبْلُوَنَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ
وَالْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَبِشْرِ الصَّابِرِينَ » (البقرة ١٥٥)

والمصائب : « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى
مَا أَصَابَهُمْ » (الحج ٣٥)

و « فِي الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ » (البقرة ١٧٧)

وفي الجهاد ولقاء العدو ، وهو من أكثر مما يتعلق به صبر المؤمنين :

« ثُمَّ إِنْ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا »
« إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ »

« وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » وهو سبحانه : « مع الصابرين » .

والسكوتُ عن ذكر متعلق الصبر الذي يتوصى به الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،
في آية العصر - وآية البلد - يعطيه دلالة الإطلاق والتعميم في حدود ما ورد في القرآن
الكريم مما يصبر عليه المؤمنون من تكاليف الإيمان ، والابتلاء ، وفي السراء والضراء
وحين البأس ، وفي الجهاد ولقاء العدو .

وتلك هي مسئولية الإنسان الاجتماعية ، تُلزمه ديناً أداء حق الجماعة من التواصي
بالحق والتواصي بالصبر .

وموقف القرآن من هذه التبعة ، يقطع برفض السلبية التي يتصور فيها الإنسان أنه
يكفي لنجاته من الخسر ، أن يؤمن بخالفه ويعمل صالحاً ، دون أن يقضي حق الجماعة .
وبعيداً عن جدل علماء الكلام ، نقول إن الإيمان وعمل الصالحات يمدى على
الجماعة بصلاح أفرادها ، وتحرُّجهم من اعتراف ما يسيء إلى إخوانهم وأمتهم . لكن
الإنسان مظنة أن يتوهم أن الإيمان يكفي فيه النطق بالشهادتين وأداء العبادات واجتناب

الكبائر، ومن هنا كانت عناية القرآن الكريم بتقرير المسؤولية الاجتماعية، أصلاً من أصول الدين.

فيمثل هذا التقرير الحاسم في سورتي العصر والبلد، تتقرر مسؤولية الإنسان الاجتماعية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في آيات أخرى محكمات:

« وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »
(آل عمران ١٠٤)

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » ...
(آل عمران ١١٠)

« يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ »
(آل عمران ١١٤)

« ... الَّذِينَ آمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ »
(التوبة ١١٢)

ومعها آيات (الأعراف ١٥٧ - والتوبة ٧١، الحج ٤١، لقمان ١٧).

وكما جعل القرآن الكريم مناط خيرية أمتنا، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

لعن الذين تخلوا عن هذه التبعة الكبرى من كفار بني إسرائيل:

« لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لُبِّسُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »
(المائدة ٧٩)

كما لعن الله المنافقين والمنافقات:

« يَا مَرْوَنَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ »
(التوبة ٦٧)

وهيئات لشريعة وضعية أن ترقى بالإنسان إلى مثل هذا المستوى من احتمال مسؤوليته

الاجتماعية التي يجعلها الإسلام مناط الخير والإيمان، وعاصمها من الخسر والهلاك:

« وَالْعَصْرُ » إن الإنسان لَنَفْسٍ خُسرٍ . إلا الذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

صدق الله العظيم